البنائية الوظيفية وفرضية التعارف وميكانزمات المحافظة على التوازن في المجتمع الكربلائي

طالب الدكتوراه مهدي جبار عكله

mahdijabbar@outlook.com

أ.د. احمد عبد الرضا محمد

جامعة بغداد / كلية الآداب / قسم علم الاجتماع

الملخص:

تعتبر البنائية الوظيفية نظرية مركزية واساسية في علم الانثروبولوجيا ، وقد كشفت الدراسة إن تلك النظرية لما لها من أهمية وصدارة في الانثروبولوجيا الا أنها تعاني من بعض نقاط الضعف في دراستها للبناء الاجتماعي في بعض المدن سريعة التغيير ، وترمي الدراسة الى كشف مكامن القوة والضعف في النظرية البنائية الوظيفية والتي كانت ومازالت نظرية محورية في الدراسات الانثروبولوجية في بعض البلدان ومنه (مصر) ، وقد اثبتت الدراسة أن من أهم المرتكزات في هذه النظرية وهو عنصري (الثبات و التوازن) للبناء الاجتماعي والذي يمكن ان يختل في بعض المدن كـ (كربلاء) لكونها مدن سريعة التغير الاجتماعي لأنها مدن مفتوحة باستمرار للغرباء الحاملين لعادات وتقاليد مغايرة لعادات اهل المدينة الأصليين وهذا الحال يسبب ارباك لاستمرارية وتوازن البناء الاجتماعي الذي يحتاج الى الثبات مدة طويلة لكي يستطيع المحافظة على التوازن صحيحة ، وعلية استعانت البنائية الوظيفية في دراستها لكربلاء بميكانزمات محلية خاصة تساعدها على فرض التوازن في البناء الاجتماعي الكربلائي.

الكلمات المفتاحية : (البنائية الوظيفية، التعارف، الميكانزمات).

Functional constructivism, loose acquaintance, and mechanisms for maintaining balance in Karbalai society.

PhD student Mahdi Jabbar Okla

mahdijabbar@outlook.com

Prof . Dr . Ahmed Abdel Reda Mohamed

University of Baghdad – College of Arts – Department of Sociology

Abstract:

Functional constructivism is considered a central and basic theory in anthropology. The study revealed that this theory, because of its importance and prominence in anthropology, suffers from some weaknesses in its study of social structure in some rapidly changing cities. The study aims to reveal the strengths and weaknesses of constructivist theory. Functionalism, which was and still is a central theory in anthropological studies in some countries, including (Egypt), and the study has proven that one of the most important foundations in this theory is elemental (stability and balance). For the social structure, which may be disturbed in some cities, such as (Karbala), because they are cities with rapid social change, because they are cities that are constantly open to strangers who carry customs and traditions different from the customs of the original people of the city, and this situation causes confusion for the continuity and balance of the social structure, which needs stability for a long period in order to be able to maintain the balance. It is correct, and therefore, in its study of Karbala, functional constructivism used special local mechanisms that help it impose a balance in the Karbala'i social structure.

Keywords: (Functional constructivism – Acquaintance – Mechanisms) .

المقدمة :

يتحتم على الدراسات الانثروبولوجية أن تتعبد بالنظرية للملمة بحثها وتوجيهه نحو هدف تخطه النظرية بعد أن تجيب على التساؤلات التي تلعب دور الشرارة المولدة للبحث ، وإن الغاية التي تريد الدراسة الوصول اليها هي التي ترشده الى نظرية بعينها قد تنطبق تماما مع الدراسة وقد لا تنطبق الا بعد اجراء بعض التعديلات والاضافات عليها بما يتلائم ومجتمع الدراسة كـ (سرير بروكروست [*]) ، وانطلاقا من هذه الجزئية فإن غاية الدراسة والتي تتلخص في أرخنة بناء اجتماعي وثقافة كاملة على وشك أن تدرس تحت انقاض التغيير هي التي رشحت لنا النظرية البنائية الوظيفية مع بعض الإضافات التي فرضها الميدان ، فرغم قدم هذه النظرية وتعرضها للنقد والتجريح من قبل النظريات الحديثة إلا انها تشكل لنا صورة بانورامية للمجتمع الكربلائي في الوقت الحاضر ، وقد تعكزت الدراسة على النظرية البنائية الوظيفية بصورتها الكلية أي الأفكار المالينوفسكية المهتمة بإفعال الافراد ومظاهر القهر والالزام المفروضة من قبل النظم الاجتماعية ، والبراونية المهتمة بدرجة كبيرة بموقع الفرد داخل النظام الاجتماعي أي تولي الرؤية البراونية اهتماما كبيرا ببنية النظام الاجتماعي ذاته .

وتتعامل الانثروبولوجيا مع النظرية (التجريد العلمي) على درجة كبيرة من الأهمية حيث ترتبط النظرية ارتباطاً وثيقاً بالممارسة الميدانية ، وعليه تعتبر النظرية والاثنوغرافيا وجهان لعملة واحدة في الانثروبولوجيا. وتعد البنائية الوظيفية من اقدم النظريات العلمية في الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية وتتميز بالدراسة التفصيلية للبناء الاجتماعي وتوضيح الترابط والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية ، ويعد مفهوم(البناء الاجتماعي) من المفاهيم الاساسية في الدراسات الاجتماعية

[*] كان بروكروست، في الميثولوجيا اليونانية، قاطع طريقٍ يعيش في أتيكا، وكانت له طريقةٌ خاصةٌ جدًّا في التعامل مع ضحاياه، فقد كان يَستدْرِج ضَحِيَّته ويُضيِّفه ويكرم وفادته، وبعد العشاء يدعوه إلى قضاء الليل على سريره الحديدي الشخصي، إنه سريرٌ لا مثيل له بين الأسِرة إذ كان يتميز بميزةٍ عجيبة: هي أن طوله يلائم دائمًا مقاس النائم عليه أيًّا كان، غير أن بروكرست لم يكن يتطوع بتفسير كيف يتأتَّى لسريره أن يكون على مقاس الجميع على اختلاف أطوالهم، حتى إذا ما اضطجع الضحية على السرير بدأ بروكرست عمله، فجعل يربطه بإحكامٍ ويشدُّ رجليه إن كان قصيرًا ليمطهما إلى الحافة، أو يبترهما بترًا إن كان طويلًا ليفصل منها ما تجاوز المضجع؛ حتى ينطبق تمامًا مع طول السرير! وظل هذا دأبه إلى أن لقِيَ جزاءه العَدلَ على يد البطل الإغريقي ثيسيوس Theseus الذي أخضعه لنفس المَثُلة، فأضجعه على السرير ذاته وقطع رقبتَه لينسجم مع طول سريره. ينظر الويكيبيديا .

عامة والدراسات الانثروبولوجية خاصة ، وقد ظهرت اهميته بعد اتجاه كثير من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا منذ اوائل القرن العشرين الى القيام بالدراسات الحقلية في المجتمعات الصغيرة الحجم القليلة السكان نسبيا بوصفها وسيلة لفهم المجتمع الانساني في عمومه ،فقد اتاحت هذه الدراسات لهؤلاء العلماء الفرصة لأدراك نوع ومدى التفاعل القائم بين مختلف النظم الاجتماعية ، ويبدو ان البنائية الوظيفية تحاول تحليل ودراسة الابنية المجتمعية من ناحية الوظائف التي تقوم بها هذه البنى التي لها حتمية لا مفر منها وهي وجود وظائف تؤديها.

المبحث الأول : الاطار العام للدراسة :

١- موضوعة الدراسة :

تعتبر المدرسة البنائية الوظيفية من المدارس الرائدة في علم الانثروبولوجيا والتي قامت بالضد من المدرسة التطورية التي كانت تدرس المجتمعات معتمدة على الجانب التطوري حيث ترى ان المجتمعات تسير من البسيط الى المعقد ، وكانت تهتم اهتمام واسع بالجانب التاريخي ، وكردة فعل ضد المنهج التطوري ظهرت المدرسة البنائية الوظيفية التي تهتم بدراسة المجتمعات آنيا وليس تزامنياً كالتطورية .

٢- أهمية الدراسة :

تنبع أهمية الدراسة كونها تعتبر دراسة نقدية لمدرسة عريقة في الانثروبولوجيا كالبنائية الوظيفية ، لتشكل تلك الاعتراضات المكشوفة خطوة أولى امام الباحثين لأستخراج واكتشاف مكامن القوة والضعف في كل ما هو مسلم به للخروج بنتيجة جديدة في المستقبل .

٣- هدف الدراسة :

ان الهدف الرئيس للدراسة هو تسليط الضوء على الخلل المنهجي الذي تعاني منه المدرسة البنائية الوظيفية وكيفية معالجة ذلك الخلل بالركون الى فرضيات او نظريات قريبة منهجيا منها لسد تلك الهفوات التي لا يمكن لها تجاوزها بمفردها .

المبحث الثاني : مفاهيم الدراسة :

١- البنائية الوظيفية :

مذهب انثروبولوجي يؤكد على الاهتمام بالدور الذي يلعبه كل جزء من أجزاء الحضارة في وجودها الكلي ، وهي مدرسة ترتبط بالأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية والتاثير الذي اثارة (راد كليف براون ومالينوفسكي وفيرث وبريتشارد وفورتس) كأعظاء في المدرسة الوظيفية البنائية ، وقد مورس ضد هذه المدرسة حملات تسقيط كثيرة من قبل المدرسة الامريكية والانثروبولوجيا النقدية وغيرها (سيمور ، ١٩٩٢ :٧٤١) .

٢- التعارف :

مبدأ إسلامي واتسرتيجية مستقبلية للكشف عن القواسم المشتركة بين الناس كافة شعوباً وقبائل لخلق رابطة يشترك فيها الناس بدون تمييز (الباش حسن ، ٢٠٠٥ :٥) .

٣- الميكانزم :

مفهوم ذات اصل سايكولوجي وياتي بعدة معاني مثل (حيل الدفاع او الحيل العقلية او الميكانزمات) وهو دينامية نفسية يستخدمها الانسان كوسيلة دفاعية لتجنب الألم والتحرير من الصراعات النفسية الداخلية والخارجية ، فلها غرض وقائي وآخر دفاعي ، وأستخدامها ضروري من اجل تحقيق الثبات الانفعالي (الشربيني ، ٢٠٠٦ :١٠٦) .

المبحث الثالث :

اولاً: الاتجاة البنائي الوظيفي :

ظهر الاتجاه او النظرية البنائية الوظيفية في مجال الانثروبولوجيا بصورة واضحة على يد العالمين البريطانيين (راد كليف براون وبرونيسلاو مالينوفسكي) حيث قدما تحليلا دقيقا للمجتمع الذي يمثل المجتمع فيه اجزاء مترابطة وهذه الأجزاء لا تفهم الا في علاقاتها بعضها ببعض من جانب، وعن طريق مضمونها الكلي من جانب أخر(العثمان ، ٢٠٢٢: ١٥) . وكان اتجاه راد كليف براون

الوظيفي يقوم على دراسة العلاقات المشتركة بين البناء الاجتماعي والحياة الاجتماعية، فالبناء الاجتماعي هو تنظيم يضم مجموعة من الأشخاص بينهم علاقات تحددها وتنظمها النظم والانساق الاجتماعية، واي نظام جماعي هو مجموعة من أنماط وقواعد السلوك التي تتصل بمظهر معين من مظاهر الحياة الاجتماعية، وكما ان البناء الاجتماعي هو الذي يحدد هذه الحياة الاجتماعية وبدورها تحافظ على استمرار وجودها (فتحية والشنواني ، ١٩٨٨ :١١٦).

إن اتجاه مالينوفسكي يميل الى تحديد الوظيفة النهاية للثقافات الإنسانية ومن ثم تفسير وجودها عند الناس(الجوهري، ٢٠٠٥:٣٤٦) . فهو يرى ان الرؤية الوظيفية للثقافة تتمثل في ان كل نمط من الثقافة وكل شيء مادي، انما يؤدي وظيفة حيوية لا يمكن الاستغناء عنها في الثقافة، وان ثقافة أي مجتمع تنشأ وتتطور في إطار الاحتياجات البيولوجية والنفسية للإنسان (الجوهري وشكري ، ٢٠٠٨ :١٢٣) . حيث تهتم الوظيفية المالينوفسكية بأفعال الافراد ومظاهر القهر والالزام التي تفرضها النظم الاجتماعية عليهم ، والعلاقات بين حاجات الفرد واشباع تلك الحاجات عن طريق الأطر الثقافية والاجتماعية (برنارد ٢٠١٧:١٠٥) وكما وصف (كابيري) مستويات التجريد الثلاث في نظرية مالينوفسكي عن الوظيفية حينما قال في المستوى الأول تدل الوظيفية على تأثيرات نظام اجتماعي معين على النظم الاجتماعية الأخرى ، ويقصد بذلك العلاقة بين النظم الاجتماعية (حيث ماثل نظيرة براون بهذه الفكرة) ، وفي المستوى الثاني فهم نظام معين بمصطلحات وبلغة يحددها أفراد المجتمع المحلي ، أما المستوى الثالث فيحدد الطريقة التي يدعم بها النظام الاجتماعي التماسك الاجتماعي عموما (المصدر نفسه :١١٤) .

ويحدد (مالينوفسكي) الوظيفة تحديدا ادق عندما يقول انها نظرية تحول الحاجات العضوية الحية الفردية الى ضرورات وحتميات حضارية مقتبسة ، وان المجتمع يصوغ الفرد في شخصية حضارية عن طريق التحكم الجماعي في وسائل التكيف (كاردينزو ، ١٩٦٤ :٢٤٩) . هذا من جانب مالينوفسكي ، وأما من جانب (راد كليف براون) فقد ظل التأكيد على المجتمع وتغليبه على الفرد قويا في دراساته ، حيث ركز على الوظائف التي تؤديها النظم داخل نسق اجتماعي بدل من التأكيد على الكيفية التي

بمقتضاها تتغير تلك النظم عبر الزمن (برنارد ، مصدر سابق :١٢١) . ويرى براون زعيم البنائية الوظيفية إن البناء الاجتماعي والتوازن الطبيعي داخل البناء يُعد أس البنائية الوظيفية .

وعليه فقد تناغمت الدراسة مع المنظور المالينوفسكي المتمثل بالتركيز على أفعال الافراد وعمليات القهر والالزام المفروضة عليهم من قبل النظم الاجتماعية لكون كربلاء دائما ما تستحدث بها انساق جديدة يجلبها الوافدين الذين يضيفون بنى جديدة بعلاقات مختلفة تستدعي التعامل مع الافراد بخصوصياتهم المختلفة ، لكون منطقة الدراسة من اكثر المناطق جذباً للوافدين الدائمين والمؤقتين ، فبذلك ان دراستنا تتجه الى اتخاذ من نمهج مالينوفسكي طريقا للوصول الى ثقافة مجتمع البحث من جوانبه المادية والاجتماعية على مستوى المؤسسات وارتباطاتها المكانية، فضلا عن العلاقات المترابطة والتي تمثل شكلا مترابطا وظيفيا، يكون للفرد فيه دورا كجزء من هذه الثقافة بحسب ما ينظر اليه العالم مالينوفسكي.

وأما تناغم الدراسة مع المنظور البراوني تجلى في تركيز الدراسة على المنطقة القديمة والتي تتمتع بعنصر ثبات البناء الاجتماعي بسبب صغر حجمها وارتفاع أسعارها مما جعلها محط رحال الوافدين المؤقتين اكثر من الدائمين بصورة دورية ، وأما بخصوص التوازن المحافظ على البناء الاجتماعي فقد خلق الوضع العام بمنطقة الدراسة المتمثل بالتواصل الحضاري تعاون بين البناء الاجتماعي الخالق الطبيعي للتوازن وبين الجماعة التي تسهم بمساندة حالة التوازن بخلق توازن مصطنع اذا ما ضعف البناء الاجتماعي وعجز عن فرض التوازن في بعض الظروف بسبب استمرار رفد البناء الاجتماعي الكربلائي بجماعات جديدة حاملة لرؤى جديدة في التعامل مع أنساق البناء الكربلائي المستقر مما يسبب تعقد البناء الاجتماعي ويجعله يتعامل مع ثقافات مختلفة غير متوالفة في اغلب الأحيان ، واذا ما ضعف التوازن الطبيعي لجأت الجماعة الى خلق ميكانزمات خاصة بها يمكن ان نطلق عليها بـ (ميكانزمات المحافظة) لأعاده التوازن الى البناء الاجتماعي من جديد .

ومن هذه الميكانزمات هي ميكانزمات غير رسمية خاصة بالمجمع المحلي (الأسر الكربلائية الاصلية) والتي يطلق عليها محليا بـ (ميكانزم ولد الحسين) والتي عبارة عن تجمعات للاسر الاصيلة يقع على عاتقها إعادة الأمور الى نصابها في حال خل التوازن الخاص بالبناء ككل ، وميكانزمات رسمية

تقع على عاتق العتبة والمحافظ والمتمثل بـ (ميكانزم قانون قدسية كربلاء) والذي يفرض سياقات خاصة تتوائم مع الجو الديني في المنطقة وتجبر المجتمع على العمل به للحفاظ على البناء الاجتماعي الإسلامي في كربلاء .

ثانياً : فرضية التعارف (*) :

يعد التعارف قيمة إنسانية عليا وترياق ناجع ضد النزعة المتمركزة حول الذات والتي يتحدد بموجبها قيم ومعايير وقوانين وعلاقات خاصة تنمط طريقة النظر والتعامل مع الآخر المختلف وتعتبره مجرد مكون هامشي فاقد للقيمة وغير مساهم في بناء الحضارة الإنسانية ، وتحاول الدراسة بهذه الفرضية معالجة بعض الهفوات التي نشأت بعد تطبيق النظرية البنائية الوظيفية على المجتمع الكربلائي ، حيث أنه كثير ما لا تتطابق نظرية انثروبولوجية معينة على مجتمع بشكل تام دون الحاجة لنظرية او رؤية او فرضية أخرى تعمل كعكاز تتكئ عليها النظرية الرئيسة ، ولهذا أختارت الدراسة هذه الفرضية لتكون رافدا للنظرية البنائية الوظيفية لكونها من نفس السنخ .

فالتعارف لغة جاء من عرف معرفة وعرفاناً أي ادركه بحاسة من حواسه ، فهو عارف وعريف وهو عروف ، والمعرفة والعرفان هو ادراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره وهو اخص من العلم ويضاده الإنكار ، تعارف وتعارفوا أي عرف احدهم الآخر أو بعضهم بعضاً (الوسيط :٢٩٦). وفي معجم مقاييس اللغة جاء من مادة (عرف) فالعين والراء والفاء أصلان صحيحان ، يدل احدهما على تتابع الشيء متصلا ببعضه والآخر على السكون والطمأنينة ، ويفضل ابن فارس الأصل الثاني على الأول ، لكون عرف فلان فلانا عرفاناً ومعرفة يدل على سكونه اليه واطمئنانه نحوه ، لأن من انكر شيء توحش منه ونبا عنه (ابن فارس :٢٨١) . وجاء في لسان العرب إن تعرف القوم يعني عرف بعضهم بعضاً ، حيث نقوم انت فلاناً فاستعرف اليه حتى يعرفك (ابن منظور :٢٨٩٨) .

(*) تم استيحاء مفهوم التعارف من الآية القرآنية الكريمة (١٣) من سورة الحجرات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ لسببين الأول هو إن التعارف مفهوم واسع حيث تدخل تحت عباءته مفاهيم كثيرة لها صلة مباشرة بالدراسة كمفهوم التواصل والتبادل والتلاقح الثقافي والتعايش والعلاقات الاجتماعية والتربط .... الخ ، والثاني هو إنتساب المفهوم الى حقل المعرفة الإنسانية عموماً والإسلامية خصوصاً فليس بوصفه مفهوماً غربياً يحمل الأيديولوجيا الغربية الانتهازية بل هو مفهوم وقيمة عليا في نفس الوقت .

وأما اصطلاحا فقد عرفة (محمد السماك) بانه أي التعارف هو الجسر الرابط بين الجماعات المتنوعة ، لكن لا تعارف من دون معرفة ، فالتعارف قائم على المعرفة حيث يفترض بالآخر ان يكون مختلف حتى نتعرف علية ، بينما يعرفة (زكي الميلاد [*]) بانه دعوة لأن تكتشف وتتعرف كل أمة وكل حضارة على الأمم والحضارات الأخرى بلا سيطرة او هيمنة او أقصاء او تدمير(يمينة ، ٢٠٢٢ :٢٧) .

وعليه فلا بد من التأسيس المعرفي لمفهوم التعارف والذي سوف نختصره بثلاث أسس رئيسة :

١- الأساس الأسلامي :

بدايتةً لا بد ان يكون لمفهوم التعارف رؤية دينية إسلامية واضحة تحدد شكل العلاقات الاجتماعية بين الأنا والآخر ، لكون هذا المفهوم يستند بالدرجة الأولى الى الأصل القرآني الذي أستُقطع منه وهي الآية الثالثة عشر من سورة الحجرات ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ وإن المتأمل بهذه الآية يكتشف وبدون جهد فكري إن الخطاب القرآني جاء بصوره شاملة مخاطباً الناس جميعا بدون استثناء ومذكراً الناس جميعاً بأصلهم الواحد دون الالتفات الى اختلافاتهم العرقية والقومية والمكانية والزمانية .

وبعد ذلك استعمل القرآن الحكيم مفردتين دقيقتين وهما (الخلق والجعل) حيث إن الخلق المتقدم على الجعلية يعني التصميم والتقدير ، وهي إشارة الى وحدة الخالق ووحدة الخلق (أي وحدة الطريقة التي يتكاثر بها الكائن الحي بالعموم) بينما الجعل او الجعلية هي تغير في صيرورة الحركة (شحرور، ٢٠١٠: ٢٧٤) . والتي تعني الانتقال من الوجود بالقوة الى الوجود بالفعل [*] وفق نواميس الخلق حيث ان الميل البشري للعيش في مجتمعات وعلى شكل شعوب وقبائل هو ميل فطري تكويني .

---

[*] **زكي الميلاد** مفكر وكاتب سعودي متخصص في الدراسات الإسلامية، ولد في محافظة القطيف في السعودية عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م)، حاصل على جائزة وزارة الثقافة والإعلام للكتاب في (الفكر والفلسفة) عام ٢٠١٧م، وصدر له كثير من المؤلفات الفكرية من أبرزها كتاب (عصر النهضة: كيف انبثق؟ ولماذا أخفق؟).

[*] يرجع مفهوم الوجود بالقوة والوجود بالفعل الى الفيلسوف اليوناني ارسطو حيث يفرق ارسطو بين الوجودين من حيث إن الوجود بالقوة هو أمكانية التحقق في الواقع قبل ان يتحقق ، فاذا وجد في الواقع صار وجدوده وجود بالفعل ، فالبيضة هي دجاجة بالقوة فاذا فقست وصارت صيصاً فهي دجاجة بالفعل ، وإذا ما طبقنا هذا الحال على الآية

ومن ثم تنتقل الآية الى اهم غاية وقيمة في الوجود بعد ان بينت تنوع الناس الى أمم وحضارات وشعوب وقبائل متنوعة ألا وهي قيمة (التعارف) والتي توضح مدنية الانسان واحتياجه الى التعارف مع أبناء جنسه لخلق التآلف والتوادد ونبذ التناحر والحقد النابع من الجهل بمعرفة الآخر ، فالتعارف مشروع إسلامي كبير وقاعدة اجتماعية رصينة ومنفتحة على مر العصور ، حيث يعتبر مفهوم التعارف مفهوم عابر للزمان والمكان وباحث عن القواسم المشتركة بين الناس اجمع بشعوبها وقبائلها ، لذلك يمكن اعتبار هذا المفهوم (كنظرية) هي الطريق الوحيد القادر على نشر السلام والوئام في ربوع العالم في المستقبل عن طريق التواصل التعارفي بين الحضارات والأمم وفق منهج الاعتدال والتسامح

الأساس الفلسفي :

يلتقي مفهوم التعارف كمفهوم إسلامي مع مفاهيم ورؤى أخرى تتعاضد لتمد جسور المحبة والوئام بين الأنا والآخر ، وأهم الفلاسفة الذين يمكن ان نشير اليهم في هذا المضمار هم (أريك فروم ويوركن هابرماس وكارل بوبر) . حيث ينطلق فروم بمشروعة الإنساني من خلال تفكيكه لثنائية (التملك والكينونة) حيث يرى ان التملك ناتج من الطمع والجشع والتسلط والانانية الفردية والجماعية المؤدية الى التصارع والتناحر ، وقد أدان فروم تاريخ اوربا القائم على التملك ووصفه بالتاريخ المنتج للحروب والدمار (فروم، ١٩٨٩: ١٣٤).

وقد كانت خطابات فروم داعية الى تأسيس مجتمع يعيد للإنسان ما فقده من كرامته وهو بمثابة مجتمع جديد قائم على المحبة والاخوة ، حيث شخص فروم إن الحياة التي نعيشها لا معنى لها ولا غاية ترجى من وراءها الا أذا ارتبطا مع بعضنا بروابط عامة متفق عليها (المصدر نفسة :٩) . وكأن فروم يتبنى مشروع التعارف كمشروع إنساني يرتبط فيه الانسان بالآخر برباط متين وقوي وهو رباط المحبة الناتج عن التعارف.

بينما استند (بوبر) في فلسفته الحضارية والثقافية الى قضية رئيسه وهي التركيز على (البعد الإنساني) رافضا كل الادعاءات التي تدعيها ثقافة ما على انها متفوقة ويجب ان تتبعها باقي

فسيكون الذكر والانثى هم شعوب وقبائل بالقوة فاذا ما تكاثروا صاروا شعوباً وقبائل بالفعل ، والمقصود من كل هذا أن وجود الشعوب والقبائل المختلفة هو واقع طبيعي في نواميس الخلق .

الثقافات لكون هذا الادعاء المتفرد هو بحد ذاته مسببا لدمار البشرية ، لذا يرى بوبر ان العلاقات بين الثقافات عليها الابتعاد عن الأطر المغلقة (بوبر ، ٢٠٠٣:١٥) . وهذه دعوة صريحة من فيلسوف بحجم بوبر للدعوة الى التعارف والتراحم بين الثقافات الإنسانية .

بينما اطلق (هابرماس) على فلسفته ومشروعه الأكثر شهرة اسم (التفاعلية التواصلية) في كتابه (القول الفلسفي للحداثة) وهو مفهوم يشترك بنسق معرفي مع مفهوم التعارف ، وقد دعا هابرماس الى عقلانية تواصلية (تعارفية) بدل العقلانية العدائية المسببة في تفتتح المجتمع الإنساني ، وهذه العقلانية الجديدة تحتاج الى التقدم والعصرنه والتجديد حيث تتطلب نمطاً جديداً من العلاقات الإنسانية ، وهذه دعوة الى نقد العقل الاداتي القائم على مقولة (الغاية تبرر الوسيلة) والذي كان سبباً في أن يفقد المجتمع الإنساني قيم (الحب والشفقة والتعارف والوئام) مما جعل الانسان يفقد الثقة باخيه الانسان ، وهي دعوة مرة أخرى الى نبذ التقوقع حول الذات والانفتاح والتعارف مع الاخر المختلف (مقال لأبو حامد ، ٢٠١٥) . وإن الفارق المائز بين مفهومي (التعارف) كمفهوم إسلامي و (التفاعلية التواصلية) عند هابرماس هو إن التواصل عند هابرماس مرتبط بحقل المعرفة لذا تم ربطه بالعقل ، بينما مفهوم التعارف مرتبط بحقل الاجتماع لذلك تحددت علاقته بالمجتمع والجماعة والناس

الأساس الانثروبولوجي :

تتماهى الانثروبولوجيا وهي من أكثر العلوم التصاقاً بالثقافة مع مفهوم التعارف والذي من خلاله يتم التواصل والاقتراب من الآخر المختلف بقدر معين ، ولكن رغم استنفار الانثروبولوجيا لجميع ادواتها ونظرياتها ورؤآها للاقتراب من الآخر إلا إنها تؤمن بوجود (مسافة تكوينية) لا يمكن إلغائها مطلقا ، فالأنثروبولوجيا من اكثر الحقول المعرفية استخداماً لمفاهيم مترادفة مع مفهوم التعارف كمفهوم التواصل والتثاقف والعلاقات الاجتماعية والتحاور والتعولم ... الخ ، ومن خلال تلك المسافة تستطيع الأنثروبولوجيا اختلاق الآخر وفق معطيات معرفية اكتسبتها عن قرب من خلال مدخل الاثنوغرافيا والتي تعد الهوية الأكثر قرباً من هذا الحقل العلمي .

وعليه فإن الخطاب الانثروبولوجي يظل حتى وهو يتوق الى الوصف خطاباً في وضع ترجمي ، فهو يضمن العبور من ثقافة المحلي (بحملها وثقلها الدلالي المغاير لنا) الى ثقافة الملاحظ والقارئ ،

ولذلك يرى (كليفورد كيرتز) إن عمل الترجمة (وصف الآخر) لا يعني إعادة للطريقة التي يقدم بها الآخرون الأشياء من اجل أن نقدمها بألفاظنا ، فبهذه الطريقة تتلاشى الأشياء ، ولكنه استعراض لمنطق عرضها طبقاً لطرائقنا الخاصة في التعبير ، وباختصار يجب تصور الترجمة لا بصفتها معادلا بنيويا بل بطريقة ديناميكية ، أي بصفتها تفاعلا بين المتخاطبين حول وضع واحد (كيلاني ، ٢٠١٥ :١٨) .

وأنطلاقا من فكرة حتمية المسافة الانثروبولوجية يتحفنا الشهيد (مرتضى مطهري) برأي حول آية التعارف ليقول إن المراد من الإنشعاب الى شعوب وقبائل إنما وجد لحكمة في اصل الخلقة ، وهو معرفة الافراد بعضهم لبعض حسب انتسابهم الى القبيلة والشعب (مطهري ، ١٣٨٦ ش :٦٢) . وهذا الرأي يشير بوضوح الى إن مفهوم التعارف في الآية يعني (التمايز) كما لوكان القول (لتتمايزوا) حيث يرى مطهري أنه لو كانت الآية تعني التعارف لقيل (ليتعارفوا) بدل قوله (لتعارفوا) بصيغة الخطاب بين الناس ليتمكنوا من معرفة بعضهم البعض من خلال سياق الاختلاف وليس التشابه .

وهذا الرأي يحيلنا الى ما يتبناه عالم الانثروبولوجيا (شتراوس) والذي يؤمن بفكرة الخصائص المميزة والتقابلات الثنائية والتي من خلالها يستطيع العقل الإنساني بناء الافكار بصورة صحيحة ، ففكرة التضاد والتقابل هو الجوهر الذي يعمل من خلاله العقل الإنساني (برنارد ، مصدر سابق : ٢٢١) . حيث تتماهى هذه الفكرة مع فكرة التمايز والاختلاف التي أشار اليها مطهري في قدرة الناس على التقارب والتعارف فيما بينهم قدر الإمكان مع لزوم وجود مسافة تكوينية لا يمكن تجاوزها أنثروبولوجياً

وقد نحا كذلك الانثروبولوجي (جريجوري باتسون [*]) في منهجه المقارن بعد أن حدد التواصل الفرعي من خلال مفهوم الاختلاف بوصفة سياقاً يوصل الى التوازن ، من اجل فهم

[*] بيتسون، جريجوري (١٩٠٤- ١٩٨٠) باحث من الولايات المتحدة الامريكية أفاد من دراسته للبيولوجيا وعلم النفس في دراسته الانثروبولوجية المميزة والمبتكرة، كما طور اهتماما بالعلاقة بين علم الاتصال والانثروبولوجيا. مفاهيم عديدة نقلا عن نظرية السيبرنا طيقا. وقد مهدت دراسته الاثنوجرافية بعنوان نافان (١٩٥٨) الطريق لمجالات كثيرة اصبحت فيما بعد محورا للدراسات الرمزية في الانثروبولوجيا. ففي هذا المؤلف يستخدم بيتسون مفاهيم روح

واستيعاب سلوك الجماعات العرقية المتمايزة ، ركز باتسون على مفهوم الاتصال (Communication) حيث يحدده في نمطه الثقافي ولهذا يصبح الاتصال ومرجعيه الجماعات أساساً معرفيا . أنثروبولوجياً لبناء نموذجه النظري والذي بلوره في مفهوم التكوين الانشقاقي Schismegenese أي التمايز التدريجي (**) ويلاحظ على النموذج الانثروبولوجي لبيتسون انه مشغول بسلوك الجماعات الاثنية ونمط الاتصال التي تمارسه في المجتمعات التي تعيش فيها، لاسيما ان الجماعات الاثنية تمتلك تمايزاً ذاتياً وخارجياً، بالمعنى الدقيق تمايزاً بيولوجياً وثقافياً، فالجماعة الاثنية مجموعة سكانية (فرعية) تعيش في مجتمع اكبر وان هذه الجماعة تربط بين افرادها روابط العرق والثقافة وانه يدخل في المكونات الثابتة للأثنية، مكونات الدين واللغة والعادة وكل ما تحتاجه الثقافة لكي تعمل (لبيب ، ١٩٩٩:٦٣٨).

وهنا لابد من التنويه من إن هذا التأسي المعرفي لمفهوم التعارف مع الرؤى الغربية التي اشرنا اليها لهو قياس مع الفارق ، وإلا فمفهوم التعارف وفق الرؤية الإسلامية المتبناة عند الكثير من الفلاسفة المسلمين واهمهم زكي الميلاد (**) اشمل واوسع من المفاهيم التي تبناها (ستروس وباتسون) لكونه مفهوم شامل ذو قيم سامية وليست مصلحية ، ويبحث في أس المشكلة بدون غايات إمبريالية تسلطية

الشعب والمثل العليا لتحديد المبادئ العامة التي تضفي تماسكاً على نسق الاعتقاد ومن ثم تضفي تماسكا على نسق القيم. وتبنت الانثروبولوجيا الثقافية في الولايات المتحدة هذه المفاهيم على نطاق واسع لاسيما مفهوم روح الشعب. وتضم المفاهيم الأخرى المؤثرة التي قدمها بيتسون، مفهوم التكوين بالانشطار الذي يصف التوترات المتراكمة الناتجة عن تفاعل اجتماعي ولغوي، وطريقة وصول هذه التوترات إلى ذروتها في انشقاق الجماعات: المفهوم الخاص بمأزق التفكير المزدوج، وهي حالة المطالب المتنافرة أو المتناقضة من الفرد والتي يربطها بعض المنظرين بنمو الفصام؛ وكذلك مفهوم ماوراء الاتصال الذي يشير إلى "رسائل حول رسائل" أو "صياغة السلوك اللغوي" . وفي كتاب بيتسون المثير بعنوان "خطوات نحو ايكولوجيا العقل" (١٩٧٢) اكتشاف العلاقة بين نظرية الاتصالات والنظرية الايكولوجية ونظرية الانساق. ينظر: سميث، شارلوت سيمور، موسوعة علم الإنسان، مصدر سابق ، ص ٢١٠

(**) يعرّفه باتسون على انه "مسار التمايز داخل قواعد السلوك الفردي الناتج من التفاعل المتراكم بين الأفراد وهو ايضاً مسار تفاعلي قائم على رد الفعل على رد فعل آخر".

(**) زكي الميلاد" صاحب فكرة تعارف الحضارات، هو من المفكرين البارزين فقد أعطى لفلسفة الحضارة وما يتصل بها من موضوعات كالمسألة الحضارية قيمة كبيرة، حيث يعد التعارف بين الأمم والشعوب في نظر "زكي الميلاد"

وقد ارتأت الدراسة أن تكون (فرضية التعارف) معوضه للثغرات التي خلفتها النظرية البنائية الوظيفية المطبقة على مدينة كربلاء ذات الخصوصية الدينية ، لكون الفرضية التعارفية تحوي في طياتها شكل من اشكال البنائية الوظيفية وخصوصا في دراسة العلاقات الاجتماعية والاتصال والتواصل بين المجتمع المدروس وقياس مدى التعارف والتقارب المفضي الى التوازن الاجتماعي للحفاظ على البناء الاجتماعي للمجتمع الكربلائي .

وعليه تستنتج الدراسة إن مفهوم التعارف بحلته الإسلامية الشمولية شديد الأرتباط بالمدن الدينية والتي تحمل قيم التعارف والتسامح والتعايش السلمي بدون مصلحة ومن أمثلتها مدينة كربلاء المقدسة [*] ،

هو أن تعرف كل أمة أحوال الأمم الأخرى، ظروفها ومشاكلها وحاجياتها، وتفوقها ومشاريعها ومنجزاتها إلى غير ذلك، وهذا الذي يجعل من التعارف يحقق أهدافه بين الأمم والشعوب، وقد احتلت فكرة تعارف الحضارات مكانة مرموقة في أوساط المفكرين والباحثين عربا ومسلمين ، في كتابه «تعارف الحضارات» يحدثنا "الميلاد" عن علاقته المبكرة بفكرة الحضارة وكيف تطورت هذه العلاقة، فقد كان شغوفا بفكرة الحضارة منذ وقت مبكر، وكان يستهويه مطالعة كل كتاب يتحدث عن الحضارة فكرة أو تاريخا ، وعند مطالعته لكتاب «من أجل حوار بين الحضارات» لمؤلفه "روجيه غارودي" تأثر بهذا الكتاب، ويرى بأنه بالرغم من أن فكرة حوار الحضارات كانت فكرة بديعة وخلاّقة، إلا أنها لم تكن لها صدى واهتمام واضح في العالم العربي. ومع ظهور فكرة «صدام الحضارات» لصاحبها "صامويل هنتنغتون"، وجد "الميلاد" أن هذه المقولة أصبحت من أكثر المقولات نقاشا وتداولا بين مختلف ثقافات العالم، لأنها تبشّر بعصر أشدّ خطورة من عصر الحرب الباردة، وبانقسامات حادة على مستوى الحضارات. على ضوء هاتين المقولتين اللتين كان لهما صدى في الكتابات والأدبيات والإعلاميات، برز تساؤل: لماذا لا تكون هناك نظرية إسلامية تتعلق بمجال العلاقات بين الحضارات؟

وبعد تأمل كبير توصل "زكي الميلاد" إلى أن هناك آية تحث على التعارف، وهي الآية الثالثة عشر من سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾. وقد أعطاها الميلاد تسمية آية التعارف، فهي آية تخاطب الناس كافة، حينما جعلهم "الله" شعوبا وقبائل. والمقصود هنا بالشعوب والقبائل هم التجمعات والمجتمعات الصغيرة والكبيرة، ويدخل في هذا المعنى الأمم والحضارات، والذي جاز "للميلاد" استعمال هذا المفهوم على مستوى الحضارات، ومن هنا جاءت وتبلورت فكرة تعارف الحضارات. وعن بدايات نشأة فكرة تعارف الحضارات يقول "الميلاد": في صيف ١٩٩٧م، نشرت مقالة مطولة بعنوان «تعارف الحضارات»، وكانت هذه أول محاولة في نحت واستعمال هذه التسمية، التي دخلت المجال التداولي العربي منذ ذلك الوقت، وظلّت تتموج وتتّسع بوتيرة متصاعدة وما زالت محافظة على هذه الوتيرة إلى اليوم. وحينما دعيّ للمشاركة في الندوة الدولية حول «الإسلام وحوار الحضارات» نظمتها في الرياض مكتبة الملك "عبد العزيز" العامة سنة ٢٠٠٢م، قدّم ورقة بعنوان: «من حوار الحضارات إلى تعارف الحضارات»، ختمها بالإشارة إلى تحديات الإنماء المعرفي، وما يعترض المفاهيم والنظريات التي تأتي من المجال العربي في انتزاع الاعتبار العلمي والجدارة العلمية ليس من الغرب فحسب، وإنما من داخل العالم العربي أيضا. وفي سنة ٢٠٠٦م أصدر كتابا يحمل التسمية نفسها «تعارف الحضارات»، جمع فيه المقالات والكتابات التي تناولت هذه الفكرة، وتطرقت إليها، وتحدثت عنها، واتخذت من تعارف الحضارات عنوانا لها.

[*] فأن قال قائل إن ما نراه اليوم في المدن الدينية بصورة عامة والإسلامية بالخصوص خلاف ما تم ذكره وتبنيه لكون إن المدن الدينية ومن ضمنها مدينة كربلاء لا تحوي على كنائس وإديرة وكاتدرائيات وجماعات دينية كالمسيح

حيث قدمت كربلاء أروع الأمثلة لتطبيقها مفهوم التعارف من خلال العلاقات الاجتماعية الحميمة الموجودة بين الجماعات المختلفة عرقيا وقومياً ومذهبياً ، فالمدن الدينية ومن ضمنها كربلاء محكومة بالنسق الديني الفارض سلطته على كل الانساق الأخرى المكونه للبناء الاجتماعي ، والداعي بقوة الى تعزيز التعارف بين الجماعات الساكنه في منطقة الدراسة رغم وجود الاختلافات بينهم ، لذا فالتعارف مفروض على المجتمع بحكم الجو الديني العام سواء استساغ ذلك السكان ام لا .ومن خلال تطبيق خاصية التعارف بحلتها الإسلامية ولو جزئياً بين أبناء المجتمع المدروس والوافد سواء كان عربياً او اجنبياً استطاع المجتمع الكربلائي التواصل والتثاقف والتلاقح الثقافي مع الآخر المختلف للحفاظ على توازن البناء الاجتماعي من خلال ميكانزمات خاصة ذات صبغة إسلامية .

النتائج:

١- النظر الى الجانب المظلم من النظرية وليس للجانب المضئ فقط كما يفعل البعض .

٢- تسليط الضوء على مفهوم إسلامي واسع وشامل كـ (التعارف) بدل المفاهيم التي تعج بها الدراسات الانثروبولوجية كـ (التواصل والاتصال والتلاقح الثقافي والتبادل .... الخ) والتي تخرج جميعها من تحت عباءة مفهوم التعارف .

٣- القيام بتوليفه انثروبولجية أخرجت مفهوم (الميكانزم) من قالبه السايكولوجي وصبه في قالب انثروبولوجي ثقافي بعد تحويله من شكل من اشكال الدفاعات النفسية الى دفاعات ثقافية .

واليهود وغيرهم بل ولا حتى جماعات إسلامية غير شيعية ؟ ، قلنا هذا صحيح وفق فرض السؤال ولكن يجب الاعتراف بأن الوضع الحالي هو وضع مفتعل غير طبيعي ومخالف لما يريده القرآن الكريم حيث إن هناك أيادي خفية تعمل ليلا ونهارا لتأزيم الوضع العالمي بالعموم والشرقي بالخصوص ، حيث تحاول الماسونية العالمية والليبرالية الغربية أن تجعل هذه الازمة (التعارفية) سببها الأديان وخصوصا الدين الإسلامي الذي تم تصويره للآخر على انه دين إرهاب وإقصاء وعنف ، مما جعل الآخر المختلف يحاول جاهدا الابتعاد عن كل ما يتصل بالإسلام ، هذا من جهة ، ومن جهة آخرى للرد على السائل هو إن العديد من علماء الغرب المنصفين كشفوا الحقيقة التي غيبها المارد الغربي للعالم بعد أن درسوا الإسلام عن قرب فمنهم من أسلم من أمثال (روجيه غارودي وهنري كوربان) وآخرون ومنهم من انصف الإسلام بكتاباته عنه ، وهذا إن دل على شيء فأنما يدل على رفعة ومفعولية القيم الإسلامية للذي يتذوقها عن قرب ويأخذها من نبعها الصافي بدون واسطة .

المراجع:

١- سميث، شارلوت سيمور (٢٠٠٩)، موسوعة علم الإنسان،ترجمة محمد الجوهري ، ط٢ ، القاهرة

٢- الباش حسن (٢٠٠٥) منهج التعارف في الإسلام نحو قواسم مشتركة بين الشعوب، منشورات جمعية الدولة الإسلامية العامة الجماهرية العظمى، ط١، طرابلس.

٣- الشربيني لطفي (٢٠٠٦) ، معجم مصطلحات الطب النفسي ، مركز تعريب العلوم الصحية.

٤- العثمان وسام ٢٠٠٢، المدخل الى الانثروبولوجيا، الاهالي للطبع والنشر ، ط١، سوريا.

٥- ابراهيم، فتحية محمد والشنواني(١٩٨٨)، مناهج البحث في علم الإنسان (الانثروبولوجيا)، دار المريخ للنشر ، المملكة العربية السعودية ، الرياض.

٦- الجوهري، محمد(٢٠٠٥) ،الانثروبولوجيا (اسس نظرية وتطبيقات علمية)، دار المعرفة الجامعية.

٧- الجوهري، محمد، وشكري علياء(٢٠٠٨) ، مقدمة في دراسة الانثروبولوجيا، ط١، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة.

٨- برنارد الان (٢٠١٧)، التاريخ والنضرية في الانثربولوجيا ، ترجمة سيد فارس ، مراجعة هيثم الناهي ، المنظمة العربية للترجمة ، ط١ ، بيروت.

٩- كاردينزو بربيل(١٩٦٤)، هؤلاء درسوا الانسان (ترجمة امين شريف) ، ، مؤسسة فرانكلين للطباعة ، بيروت .

١٠- مجمع اللغة العربية (٢٠٠٥)، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية .

١١- ابن فارس احمد (١٩٧٩)، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ج٤ . سوريا.

١٢- ابن منظور(١٩٧٠) ، لسان العرب ، دار المعارف ، بيروت.

١٣- يمينة غاوي(٢٠٢٢م) ، نظرية تعارف الحضارات عند زكي الميلاد ، رسالة ماجستير في الفلسفة التطبيقية ، جامعة قالمة الجزائرية ، الجزائر.

١٤- شحرور محمد(٢٠١٠م)، القصص القرآني قراءة معاصرة ، ج١ ، دار الساقي ، ط١ ، بيروت.

١٥- فروم إريك(١٩٨٩) ، الانسان بين الجوهر والمظهر ، ترجمة سعد زهران ، مراجعة لطفي فطيم ، عالم المعرفة ، العدد ١٤٠، ، الكويت .

١٦- بوبر كارل (٢٠٠٣)، أسطورة الإطار في الدفاع عن العلم والعقلانية ، ترجمة طريف يمني الخولي ، عالم المعرفة ، العدد ٢٩٢، الكويت.

١٧- أبو حامد محمد (٢٠١٥)، ماهية مفهوم تعارف الحضارات مقال في مجلة اليوم السابع ،مصر.

١٨- كيلاني منذر(٢٠١٥)، أختلاق الاخر في طبيعة الخطاب الانثروبولوجي ، ترجمة نور الدين العلوي ، مراجعة محمود الهميسي ، المركز الوطني للترجمة ، ط١ ، بغداد.

١٩- مطهري مرتضى(١٣٨٦ش) ، المجتمع والتاريخ ، ج١ ، دار الزهراء ، ط١ ، ، ايران.